تأثر المفكرين العرب بالمناهج الاستشراقية في مجال الدراسات القرآنية :محمد عابد الجابري نموذجا

خالد أوخراز
معهد الرياض للدراسات القرآنية الرباط- المغرب

Abstract:

This study attempts to shed light on the study of the Qur'an from the Moroccan thinker party El Jabri visions orientalist. El Jabri has focused on Christian and Jewish documents to study the causes of revelation of the Qur'an. During his study of the causes of the descent of the Holy exposed fundamental issues in the Arab and Islamic heritage.El Jabri touches in his study of the Koran the Islamic faith issues such incident split Aalghemr- Isra and Almaraj- prophets' stories, The miracles of the Prophet, interpretation of the Coran.

Keywords:

Arab thinkers- El Jabiry- Quranic Studies- Approach questioning- Scientific Secretariat

ليس خافيا ما للدراسات الاستشراقية ومناهجها في دراسة التراث الإسلامي من تأثير بالغ على الباحثين العرب؛ ذلك أن أغلبهم قد تأثروا بمناهجها تأثيرا سلبيا، بلغ أحيانا حد التقليد الأعمى، وأخضعوا لها تراثنا من غير تدقيق، ولا تمحيص لخلفياتها المعرفية والمنهجية، فأتوا بالعجائب والغرائب في الأحكام والنتائج؛ هذا شأنهم عموما مع التراث الإسلامي، ومع القرآن الكريم وعلومه خصوصا. لهذا يسعى هذا البحث إلى بيان طبيعة تأثير الدراسات الاستشراقية ومناهجها في مجال الدراسات القرآنية على المفكرين العرب من خلال نموذج معين، وكيف أدى هذا التأثير إلى تشكيكهم في صحة القرآن الكريم، وإخضاعه لمناهج التأويل الغربية، فنصبوا أنفسهم مجددين في التفسير، ونادوا بضرورة تفسير القرآن الكريم تفسيرا معاصرا، يتناسب مع العقل المعاصر، وينبذ كل التراث التفسيري الذي لم يعد صالحا لهذا العصر.

لكن لن أتتبع بالدراسة تأثير الدراسات الاستشراقية في هذا المجال على كل مفكري العرب؛ بل سأكتفي بدراسة مواقف واحد منهم، هو المفكر المغربي محمد عابد الجابري؛ وسبب اختياري له هو أن بعض آراءه في علوم القرآن وتفسيره لا تبلغ مستوى الجرأة التي بلغته آراء غيره من الذين تجرؤوا تجرؤا شديدا على التشكيك في بعض القضايا القطعية، إذ غالبا ما يوري عن مواقفه، وهو ما يجعلها غير واضحة لغير المتخصصين، ما يجعل تقبلها لهم أمرا يسيرا، ثم كون دراساته من آخر الدراسات التي ألفت في هذا المجال من مفكر عربي له شهرة واسعة.وغاية هذا البحث التنبيه على أن خطر المفكرين المنتسبين إلى الدين الإسلامي أشد من

:

خطر المستشرقين الغربيين من خلال هذا النموذج؛ ذلك أنه إذا كان تحامل المستشرقين وتحيزهم، وعدم موضوعيتهم أمرا واضحا؛ فإن تحامل بعض المنتسبين إلى الإسلام لا يبدو واضحا، وغالبا ما يتستر بلبوس إسلامي، يجعل تفطن غير المتخصص له أمرا صعبا.

وسأتناول هذا البحث في ثلاثة محاور كما يلي:

المحور الأول: أهم المناهج الاستشراقية في الدراسات القرآنيةكان القرآن الكريم الموضوع المركزي الذي انصبت عليه جهود المستشرقين الأوائل، باعتباره المصدر الأول لتلقي المعرفة في الإسلام؛ متبوعا بباقي العلوم الإسلامية؛ منطلقين من قضية مركزية هي أن باقي العلوم ليست إلا خادمة له، ومساعدة على فهمه، فاهتموا بدراسة العلاقة بين الوحي والرسول صلى الله عليه وسلم، وكيفية الوحي، وجمعه وقراءاته، والجوانب اللغوية المتعلقة به معجما، وبلاغة، وإعجازا، ثم قصصه مقارنين إياها بما ورد في العهد القديم والجديد، كما كانت لهم عناية كبيرة بترجمة القرآن الكريم ولاتزال؛ رغم ما صاحبها من أخطاء وانتقادات[1]، وفي ما يلي أهم المناهج الاستشراقية في الدراسات القرآنية باختصار:سنستعمل مفهوم المنهج للتدليل على مختلف الآليات التي وظفها المستشرقون للبحث في مجال الدراسات القرآنية تجوزا؛ لافتقارها إلى شروط البحث العلمي الموضوعي.

-1-**منهج التشكيك**:

يقصد بهذا المنهج إثارة الشكوك حول ربانية القرآن، وتأكيد بعضهم على أنه من تأليف النبي صلى الله عليه وسلم، وتشكيكهم في الوقائع التاريخية الثابتة، والروايات الصحيحة المتعلقة بتاريخ القرآن وعلومه، فقد شككوا في صحة النص القرآني من حيث تلقيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وتبليغ الصحابة له، كما شككوا في جمعه وترتيبه، فادعى كثير منهم أن النص القرآني بعد النبي صلى الله عليه وسلم قد أدخلت تعديلات بالزيادة والنقصان، خاصة في صورته المكتوبة، ووجدوا في اختلاف المصاحف الخاصة ببعض الصحابة ذريعة لذلك.

فالقرآن الكريم حسب بعضهم ما هو إلا ثمرة للمعاناة النفسية والتطور النفسي الذي عاشه النبي صلى الله عليه وسلم، يقول المستشرق الانجليزي **جورج سيل** George Sale (ت1736) في هذا السياق:" ومما لا شك فيه، ولا ينبغي أن يختلف فيه اثنان، هو أن محمدا هو في الحقيقة مصنف القرآن، وأول واضعيه، وإن كان من غير المستبعد أن يكون قد أعانه عليه غيره، كما اتهمته العرب"[2]،كما أكد هذا الزعم كذلك **جوزيف شاخت**(Joseph Schacht 1969) الألماني في كتابه: "**محمد والقرآن**"، مدعيا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ من يهود المدينة كثيرا من الأحكام، وأن روايات جمع القرآن لفقها الفقهاء[3] .كما زعم **جولد تزيهر** Goldziher، أنه" لا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نص منزل، أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله، مثل هذه الصورة من الاضطراب، وعدم الثبات كما نجد

في القرآن"[4]. لذلك استندوا إلى الروايات التي تبرز اختلاف مصاحف الصحابة، ونقلوها من غير تمحيص، ولا تدقيق لأسانيدها ولا التفات لحكم علماء المسلمين على أكثرها بالكذب والضعف.

ومن ذلك ما قام به المستشرق الأسترالي **آرثر جيفري** (Arthur Jeffrey 1959)[5]، في تقديمه لكتاب المصاحف لأبي داود السجستاني بمقدمة نشرها عام 1937، إذ مهد فيها بذكر التنازع والخصام الذي وقع بين المتمسكين بالنقل وبين المتمشين مع العقل في دراسة الكتاب المقدس في الغرب، ليؤكد أن علماء النصارى، وعلماء اليهود، قد جَدُّوا منذ جيلين في طلب تحقيق تاريخ الإنجيل والتوراة، وأنهم فازوا بنتائج باهرة، كان لها أثر عظيم في تفسير هذين الكتابين وتأويلهما، وأما القرآن فلم نجد شيئا من هذه الأبحاث، آملا أن يكون تقديمه لكتاب المصاحف للقراء أساسا لبحث جديد في تاريخ تطور قراءات القرآن[6].

وبعدها ناقش جملة من القضايا خلص فيها إلى آراء مخالفة لما هو ثابت ومؤكد عند علماء المسلمين، منها:

- أن القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مكتوبا في شيء، لذلك فالترتيب الذي عليه القرآن ليس من عمله، وقد اتخذ هذه المقدمة ذريعة للقول بتحريف القرآن.
- المصحف الذي جمع في عهد أبي بكر ليس رسميا، وإنما هو خاص بزيد رضي الله عنه.

وعموما فما يستدلون به، لا يصمد أمام الحجج القوية التي رد بها علماء المسلمين قديما وحديثا على هذه الشبه، وقد أدى بهم التشكيك في مصدر القرآن، وصحة ثبوته إلى التعامل مع مصادر التراث باجتزاء وانتقاء واضح، قصد إثبات دعواهم في التحريف.

-2- منهج الاجتزاء في اعتماد المصادر:

وهذا المنهج نتيجة طبيعية للمنهج الأول، فلقد أدى بهم التشكيك في جمع المصحف، ووجود تحريف وزيادات ونقصان فيه إلى اعتمادهم منهج الاجتزاء في التعامل مع الروايات الواردة في المواضيع التي تناولوها، ونختصر أوجه هذا الاجتزاء في الصور الآتية:

- الاقتصار على مصادر معينة ومحدودة في علوم القرآن:

فمصادرهم عموما في مجال الدراسات القرآنية محدودة جدا، وهي في الغالب كتب جامعة لم تتحر الصحة، والرواية السليمة، فتجد مصادرهم في جمع القرآن الكريم تقتصر على كتب المصاحف لأبي داود، والإتقان للسيوطي، والفهرست لابن النديم، دونما التفات إلى باقي المصادر الأخرى التي اعتمدت الدقة والصحة في رواياتها[7]، وبخصوص التفاسير فقد اعتمدوا على تفاسير محددة كالطبري والزمخشري، وأهملوا كثيرا من التفاسير المهمة والنفسية، فغايتهم هي التجاهل المتعمد ليبدو محصول المسلمين من التفسير في النهاية رذاذا متناثرا، فرقته الأهواء الحزبية والفكرية، كما ذهب إلى ذلك **جولد تزيهر** صاحب كتاب" مذاهب التفسير الإسلامي".

-انتقاء الروايات الضعيفة:

فغالبا ما يعرضون عن المصادر الأصيلة المعتمدة التي تحرت الدقة في اختيار الأخبار ونقدها، ذلك أنها تناقض ما يصبون إليه، فمثلا لا تجد عندهم ذكرا للصحيحين إلا نادرا، بل يعتمدون في الغالب كتب التاريخ والآداب التي تبقى مصادر عامة غير متخصصة[8].

3 المنهج الردي:

وأقصد به محاولة رد كل ما جاء به الإسلام من حيث التشريع، والأحكام، والقصص والكلمات...، إلى أصول يهودية أو نصرانية، وهو منهج سار على معهيه كثير من المستشرقين، من خلال عقد مقارنات بين الكتب السابقة والقرآن الكريم، باحثين عن كل تشابه ممكن ليؤكدوا به-زعموا- أن القرآن ما أتى بجديد، وإنما هو منحول عما سبقه من الكتب، وقد خصص هؤلاء دراسات مستقلة لمحاولة إثبات مزاعمهم، من بينها: " **العناصر اليهودية في القرآن**" لـ**هير شفيلد** hirschfelfd (1934ت)، و"**ماذا أخذ محمد عن النصوص اليهودية**" **لأبراهام جيجر** Abraham Geiger(1874)، وكلاهما يهودي متعصب، و" **مصادر الإسلام**" **لكلير تسدال** Clair Tisdal، وغيرهم ممن تبنوا هذه الآراء في مؤلفاتهم حين الحديث عن علاقة الإسلام بالشرائع السابقة. فغاية ما يصبو إليه هذا المنهج هي نفي أصالة الدين الإسلامي، وربانية القرآن الكريم.وعموما يمكن إدراج هذه الآليات ضمن منهجين رئيسين هما:

-1- المنهج التاريخي الأدبي: الذي يهدف إلى دراسة الأديب وأدبه، أو الشاعر وشعره، من خلال معرفة سيرته والبيئة التي عاش فيها ومدى تأثيرها في إنتاجه الأدبي أو الشعري؛ وقد رأينا كيف اعتمد بعض المستشرقين هذا المنهج في ادعاء بشرية القرآن الكريم، وبيان المصادر التي أخذ عنها، وكيف أثرت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والدينية في تأليف القرآن.

-2- المنهج الفيلوجي: philologie: الذي يعنى بدراسة مفردات اللغة وتراكيبها، ودلالات الألفاظ، والأصوات اللغوية، والمقارنة بين اللغات من حيث خصائصها المميزة لها...، وقد وظفه المستشرقون في ادعائهم وجود كثير من الكلمات الأجنبية في القرآن الكريم.

وقد رد عيد الرحمان بدوي أسباب هذا التهجم على القرآن الكريم وعلومه من قبل المستشرقين إلى:

- الحقد على الإسلام مما أفقدهم الموضوعية.
- ضعف معرفة بعضهم باللغة العربية من الناحية الأدبية والفنية، وهو أمر له أهميته في معرفة الأساليب العربية، وليس مجرد اللغة.
- التعامل الجزئي مع مصادر التراث، وانتقاء ما يناسب أهواءهم، وعدم الاطلاع على كثير من المصادر المهمة التي تناولت ردود علماء المسلمين على القضايا التي يثيرونها.

حسبنا في هذا المبحث أن أُذكر عموما ببعض أهم الآليات(المناهج) التي وظفها المستشرقون في مجال الدراسات الاستشراقية، وليس قصدنا التفصيل والبحث في كل الجزئيات المتعلقة

بالموضوع، فقد تكلف بها كثير من الباحثين، لكن جعلتها مقدمة ممهدة لما أنا بصدده، وهو بيان التأثير المنهجي والمعرفي للدراسات الاستشراقية على المفكرين العرب الذين اهتموا بهذا المجال، على وجه التحديد الجابري، الذي اتخذته أنموذجا للدراسة في هذا البحث.

وأختم هذا المحور بالتأكيد على أني اقتصرت في هذا البحث على ذكر بعض المستشرقين الذين كانت دراساتهم غير علمية، وكان فيها مبالغة في التجني على القرآن الكريم وعلومه، دون ذكر للدراسات العلمية الجادة التي اعتنت بالتراث الإسلامي، تحقيقا، ونشرا، ودراسة، فهي جهود مشكورة لهؤلاء المستشرقين الذين كان البحث العلمي هدفهم وغايتهم.

المحور الثاني: : التأثر المنهجي بالدراسات الاستشراقية عند الجابري:

تناول الجابري القرآن الكريم وعلومه في مؤلفاته عن العقل العربي، غير أنه قد أفرد مواضيع الدراسات القرآنية بمؤلف خاص سماه " مدخل إلى القرآن الكريم، الجزء الأول في التعريف بالقرآن"[9] عبارة عن دراسة نظرية، وتفسير سماه" فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول" عبارة عن تطبيق عملي لما سطره في المدخل من آراء. ففي المدخل سلك الجابري مبدأ التدرج في الإعداد النفسي للقارئ، قصد تهييئه لقبول أفكاره، وآرائه التي يعتقد أنه سيُعترض عليها، أو أنها ستكون مستفزة للقارئ؛ وذلك بتأكيده غير ما مرة أن القضايا التي سيعيد النظر فيها، لم تكن محل إجماع بين الباحثين، أو أنه لا يسلم بها إلا داخل الدائرة الإسلامية.فمن ذلك قوله، بعد عرض بعض التعاريف المشهورة للقرآن الكريم: "وهذا لا يسلم به ابتداء، إلا المسلم المومن بأن القرآن كلام الله"[10]، ويضيف قائلا: « فإذا نظرنا إلى هذا التعريف داخل دائرة الإسلام والمسلمين، أمكن القول إنه تعريف إسلامي حيادي"؛ لكنه غير مقبول في المجال التداولي غير الإسلامي، ما يسمح بإعادة النظر فيه[11].ومن الأمثل كذلك، قوله: " إذا كان هذا الوصف، وصف النبي بأنه خاتم النبيين، منصوصا عليه في القرآن، مقبولا من طرف الجميع، فإن هناك مذهبا إسلاميا، يميز في النبوة بين ما هو مختوم فعلا وبين ما هو مستمر بصورة من الصور...، وهناك من يجعل التواتر والإعجاز موضوع نظر".[12]

وبعد أن انتهى من نقد بعض تعاريف القرآن الكريم، وبيان "مذهبيتها"، وبُعد بعضها عن الاعتراف بحق الاختلاف في الفهم، ومن إيراد بعض القضايا التي كانت محل خلاف داخل الدائرة الإسلامية، أعقب ذلك ببيان الأسباب التي دعته إلى الكتابة في مراجعة التراث المكتوب في علوم القرآن، قائلا: " أعتقد أنه لا ضرورة في الاسترسال، بعد الذي ذكرناه، في الإتيان بمزيد من التعريفات؛ كي يقتنع القارئ بأن الكتابة في موضوع "التعريف بالقرآن" شيء مبرر، إننا لا نهدف إلى مساءلة هذه التعريفات عن خلفياتها المعرفية والمذهبية والإيديولوجية، لا نريد الدخول معها في جدال، يعطيها فرصة الدفاع الإيديولوجي عن نفسها؛ بل نريد أن نسلك إزاءها مسلكا مغايرا تماما، نريد استعادة الأسئلة القديمة التي كانت وراء كونها، وطرح أخرى جديدة تتجاوزها، أعني بذلك طرح مسار الكون والتكوين للظاهرة القرآنية نفسها"[13].

ويضيف قائلا: " فالناظر في الموضوع نظرة من يحمل منظار الثقافة العربية؛ كما ورثها جيلنا والأجيال السابقة، سيحكم بأن الكلام في النص القرآني قد استوفاه الأقدمون في تلك المؤلفات الجامعة، والحق أنهم طرحوا- تقريبا- جميع الأسئلة المتعلقة بالموضوع، وناقشوها، وقدموا إجابات عنها، حتى ليُخيل إلى المرء اليوم أنه لم يعد هناك مجال للمزيد! "[14].

فمن خلال النصوص أعلاه، يتبين أن الجابري كان يهدف إلى إعداد القارئ المنتمي إلى المجال التداولي الإسلامي إعدادا نفسيا، يقبل بموجبه أطروحاته التي سيعرضها في كتابه، وحتى لا يفاجأ بمضمونها، وتستفزه، عمد الجابري إلى بيان أن هذه القضايا التي سيناقشها من جديد ليس محط إجماع، وأن القول فيها لم يستوف فيها بعد، كما يظن كثير من الناس. فالجابري لم يرض لنفسه أن ينظر بهذا المنظار الموروث الذي نظر به المؤلفون في علوم القرآن؛ لإحالته على التقليد، ومجانبته العقل والعقلانية؛ لذلك ولى وجهه شطر مناظر المستشرقين، لينظر من خلالها إلى التراث العلمي في علوم القرآن، هذه المناظر التي ستسمح- برأيه - بإثارة أسئلة تجد مرجعيتها الصريحة والمضمرة في ثقافتهم الخاصة بهم، أسئلة تثير قضايا لم تكن من المجال المفكر فيه في الثقافة العربية.[15]

والعجيب في الأمر أنه، ومع اعترافه بأن إثارة أسئلة متولدة في ثقافة بعينها(غربية) داخل ثقافة أخرى (إسلامية)، ليس فيه ما يدفع إلى إثارتها؛ وأن إثارة الأسئلة المتعلقة بصحة القرآن ومصداقيته من قبل المستشرقين داخل الدائرة الإسلامية، لن تحظى بمثل القبول والاعتبار الذين حظيت بهما داخل الثقافة الأوربية، وأنه لن يكون لها الوقع نفسه، ولا النتائج نفسها؛ فإنه قد أشاد بقدرتها على إغناء التفكير داخل الثقافة الإسلامية، وقدرتها على ممارسة نوع من السلطة عليها، سلطة السائل، أو الفاعل المزعج على المسؤول، كما هو شأن أسئلة الأطفال، التي لا تخلو من إزعاج فكري، حسب قوله.فبعد هذا الإعداد النفسي للقارئ يفصح الرجل عن مراده، بصريح العبارة، مؤكدا أنه لا بد من إثارة تلك الأسئلة، داخل شرنقتنا، كما طرحها المستشرقون من قبل، داخل شرنقتهم[16].ويزيد مراده بيانا بقوله: "فرق شاسع بين وضع "الكتاب المقدس" وتاريخ تكوينه، وبين وضع القرآن ومساره التكويني، ومع ذلك، فإن هذا الفرق، سواء أخذ بعين الاعتبار، أولم يؤخذ، لا يعفي من طرح أسئلة الكون والتكوين".من خلال ما سبق، يتبين أن الجابري قد دفعه للبحث في علوم القرآن، وإعادة مراجعة ما كتب فيه أمران:

أولهما داخلي: ويتمثل في عدم كفاية الإجابات التي قدمت داخل الدائرة الإسلامية عن هذه الأسئلة؛ إذ القول بكفاية هذه الإجابات، لا يعدو أن يكون ضربا من الخيال يتعجب منه،[17] ثم رغبته في تجاوز بعض العوائق المعرفية التي حالت دون النظر في "التراث الثقافي" في هذا المجال، وثانيهما خارجي: يتجلى في تأثير السلطة الفكرية للمستشرقين الذين عدهم الكاتب

سائلين مزعجين، لا يمكن تجاهل أسئلتهم التي أثاروها بخصوص القرآن الكريم وعلومه؛ لذلك فقد حمل نفسه عناء التعريف بالقرآن الكريم من جديد.

وبخصوص طبيعة التعريف الذي يروم المؤلف تعريف القرآن به؛ فقد تبدى لي من خلال تتبع قضايا الكتاب أنه تعريف يرتكز على "آليتين منهجيتين" هما: **آلية التفكيك** من خلال نقد ما سماه "المعارف المتلقاة" و "الأفكار المتلقاة" في التراث، والتي عدها "عوائق معرفية"، تحول دون تمحيص المعارف المتلقاة، وتجعل منها مسلمات معرفية، غير قابلة للمراجعة والنقد، ثم **آلية التأسيس**؛ عبر تقديم أطروحات، وآراء بديلة تستجيب -في نظره- لتطلعات العصر؛ " لأنه بغير تجديد التفكير في الأسئلة القديمة، وطرح أخرى جديدة، لن يتأتى لنا الارتفاع بمستوى فهمنا "للظاهرة القرآنية" إلى الدرجة التي تجعلنا معاصرين لها، وتجعلها معاصرة لنا" .

وأما الفئة التي يقصدها المؤلف بهذا التعريف، فقد حددها في القراء العرب والمسلمين والأجانب كذلك، ثم فئة ممن يصدق عليها- حسب تعبيره – "الإنسان عدو ما يجهل"[18]. فلا فرق عند المؤلف بين المسلمين وغير المسلمين؛ فكلهم في حاجة إلى التعريف بالقرآن؛ فـ"هم بالنسبة إلي سواء، الفرق بين المسلم وغير المسلم في هذا المجال، هو أن المسلم يؤمن بالقرآن، وغير المسلم لا يؤمن به. أما المعرفة بالقرآن، معرفة أغلبية المسلمين، ومعرفة علماء المستشرقين وحتى البابا نفسه، فإنها تبقى معرفة هزيلة، أعتقد اليوم أن الأجزاء التي كتبت في" نقد العقل العربي"، هي ضرورية، ونحن في حاجة لأكثر منها، لاكتساب معرفة حقيقة بالقرآن، الغالبية من المسلمين اليوم حتى المثقفين وحفاظ القرآن الخ...؛ يمكن أن نعتبر أن فهمهم للإسلام -هو، كما كان يقال قديما، من جنس "إيمان العجائز"، أي الإيمان بدون بحث، والنتيجة هي أن أي شيء خارج عن الموروث، يتم اعتباره خارجا عن الإسلام، في النهاية "إيمان العجائز" هو إسلام الجهل بالقرآن، وبما فيه وبظروفه الخ، وهو إيمان مقبول من الناحية الدينية، لكن من الناحية الفكرية هو غير كاف، لذلك، فسواء تعلق الأمر بالمستشرقين، أو بغير المسلمين عموما، أو تعلق الأمر بالمسلمين، أو حتى ببعض الذين يكتبون في هذا الميدان أيضا، فإن الغالبية العظمى منهم، ليست في المستوى الذي يتطلبه التعامل مع هذا الكتاب: القرآن الحكيم[19]".

واضح من كلام المؤلف، أن غايته هي تقديم "معرفة حقيقية" بالقرآن، وكأن هذا التراث الذي كتب لأزيد من أربعة عشر قرنا، ليس فيه شيء من المعرفة الحقيقية بالقرآن، فعجيب أمر المؤلف حين ربط هذه المعرفة عن القرآن بمعرفة كتبه عن العقل العربي، وجعله مفتاحا ضروريا لحصولها، فليس مقبولا عقلا ولا نقلا، اتخاذ كل هذا التراث وراءنا ظهريا، بدعوى هزالته، أو لكون الذين كتبوه، ليسوا في المستوى الذي يتطلبه التعامل مع القرآن الكريم؛ فحسبُ المؤلف، أنه كان عالة - في كثير من القضايا التي يتناولها - على المسلمين والمستشرقين الذين قال عنهم ما قال.وبعد هذا التقديم الذي لخصت فيه الأسباب التي دعت الجابري إلى

مراجعة التراث المكتوب في علوم القرآن، وتصوره لكفية هذه المراجعة التي استلهمت التجربة الاستشراقية في نقد الكتب السابقة، والغاية منها، سأعرض في ما يلي لأهم المناهج التي وظفها الجابري للبحث في الدراسات القرآنية:

-1- منهج التشكيك أو الشك من أجل الشك:

والمقصود بهذا المنهج الجابري قد وقف موقف الشك من كثير من القضايا التاريخية، خصوصا الروايات المتعلقة بأحداث السيرة، أو بعلوم القرآن، وردها من غير حجة، ولا دليل، فمن الأمثلة على ذلك، قوله بعد إيراد الأحاديث التي رويت في مسألة الأحرف السبعة:" يمكن للمرء أن يشك في صحة هذه الأحاديث ما دامت أحاديث آحاد...، وأن الأحاديث المروية في الموضوع تجد مصداقيتها الموضوعية – إن لم نقل التاريخية – في ظهور الحاجة إلى البحث والانشغال بما قررته[20].فقد وعد الجابري في مقدمة كتابه المدخل أنه لن يشكك في الروايات المتعلقة بأحداث السيرة النبوية؛ خصوصا إذا ورد الحدث من روايات مختلفة[21]، غير أنه أخلف وعده المنهجي، فشكك في كثير من الروايات المتعلقة ببعض الأحداث المشهورة في السيرة النبوية؛ كانشقاق القمر، وحادثة الإسراء والمعراج، مؤولا لها، ورد معجزات النبي صلى الله عليه وسلم؛ لمجرد الشك، ولكونها "أحاديث آحاد"؛ وقد غلب طابع التشكيك على لغته، من خلال استعماله الكثير "لصيغ التمريض": "قيل" و "رُوي"، التي تفيد الشك، وعدم اليقين في الخبر المروي.

وقد دفع به هذا الأمر إلى التعجب، والتشكيك في كثرة ما رواه بعض الصحابة من الأحاديث، من ذلك تشكيكه فيما روته عائشة رضي الله عنها، بقوله: " لقد ضخم بعضهم دور السيدة عائشة في رواية الحديث، ولا يستبعد أن يكون للجانب السياسي دور في ذلك، وقد توفي الرسول عليه السلام وهي في حدود الثامنة عشرة من عمرها، بمعنى أنها لازمت النبي (ص) كزوجة لمدة ست سنوات، فكيف يعقل أن يروى عنها كل ذلك العدد الهائل من الأحاديث؟"[22].

ما عرضه الجابري لا يكفي دليلا للتعجب والتشكيك في كل ما روي عنها أو في فضلها، فالعبرة ليست بالمدة التي قال الجابري إنها غير كافية؛ لتروي عائشة كل هذه الأحاديث، عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ بل العبرة بمدى الحفظ والوعي والفهم عن النبي، وقد كانت عائشة رضي الله عنها من أحفظ الصحابة، وأوعاهم، وأعلم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه الدعوى قد نقلها الجابري عن نولدكه بنصها من كتابه "تاريخ القرآن"[23].الأمر نفسه، قاله عن أبي هريرة رضي الله عنه: " أما أبو هريرة الذي ينسب إليه كم هائل من الأحاديث فهو لم يدخل الإسلام إلا قبل وفاة النبي بأربع سنوات"[24].إن الغاية من التشكيك في ثقة هذين الصحابيين الجليلين وغيرهم كثير، هو رد ما روي عنهما من الأحاديث بخصوص القرآن ونزوله.

-2- منهج الانتقاء أو منطق التجاهل:

كثيرا ما غض الجابري الطرف عن كثير من الأدلة المخالفة والمناقضة لأطروحاته، دون أن يكلف نفسه عناء مناقشتها، أو تأويلها؛ حتى ولو بضرب من التأويل بعيد، فكثيرا ما يعمد إلى تقوية الحجج الضعيفة، ويستميت في الدفاع عنها، ويقدم الروايات الضعيفة على الصحيحة، ويجعلها هي الأساس، ولا يتثبت من صحتها، ويبني عليها أحكاما وقضايا خطيرة؛ فلم يلتزم الجابري المنهج العلمي الصحيح في تعامله مع الأحاديث النبوية، من حيث التخريج والتحقيق، والملاحظ عنده، بشكل بين، غياب تحقيق الروايات التاريخية - في الغالب الأعم- لتمييز صحيحها من سقيمها، إسنادا ومتنا، فقد اعتمد على كثير من الروايات الحديثية والتاريخية؛ دون أن يلتزم منهجا نقديا شاملا، في تعامله مع معظم تلك الروايات، وقد أوقعه هذا الأمر في أخطاء كثيرة.

فليته وقف عند هذا الحد، بل كثيرا ما سلك مسلك الانتقاء، في تعامله مع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد؛ حيث يورد منها ما يؤيد موقفه، ولو كان ضعيفا، دون نقد ولا تمحيص، ولا رجوع إلى أقوال العلماء فيها، ويتجاهل الروايات التي تعارض موقفه، أو يردها دون أدنى شبهة، ولو كانت صحيحة، لا دليل له سوى قوله إنها "أخبار آحاد"، كمعجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر، وترجيحه لروايات دون مرتبة رواية البخاري المعتمدة، تدل على أن لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بجبريل في غار حراء كان مناما، على رواية البخاري التي تؤكد أنه كان يقظة.

وبناء على مواقف الرجل من السنة وحجيتها، وعمل المحدثين والنقاد، التي فصلها في الفصل الذي خصصه للسنة النبوية، في كتابه بنية العقل العربي، يمكن فهم موقفه من رد كثير من الأحاديث، خصوصا خبر الآحاد الذي قال بشأنه: إن هذا الخبر قام على أساس سلطة إجماع الصحابة، و إسناده لا " يُثبتُ صحة الخبر في ذاته، بل إنما يُثبت صحة نسبته إلى الرسول، طبقا للشروط التي يعتمدها أهل الحديث، فهو صحيح على شروطهم، وليس صحيحا في نفسه "[25].ولست هنا بصدد مناقشة آرائه تلك، بل لبيان منهجه الانتقائي والعشوائي، في الاستدلال بالحديث والروايات التاريخية، وهذا الأمر منه عام في كثير من كتبه. بعد أن عرضت باختصار التأثر المنهجي للجابري بالدراسات الاستشراقية أختم هذا المحور بكلام عن موقفه من كثير من القضايا، وقراءة في مصادره، كما يلي:

-1- جعجعة بلا طحن:

كثيرة هي القضايا التي تناولها الجابري، وأحياها جدلها من جديد، دون أن يدلي فيها بجواب قاطع يشفي الغليل، فقد استمات في الدفاع عن أطروحته، في عدم أمية النبي صلى الله عليه وسلم، وتأكيده على كونه يعرف القراءة والكتابة، حاشدا جملة من الأدلة النقلية، والعقلية ما يدعم موقفه، أغلبها مما عرضه **نولدكه** بخصوص هذه القضية، الأمر الذي عالجه فيما يقرب من أربعين صفحة[26]؛ غير أنه في النهاية لم يبين ما يترتب عن القول بعدم الأمية، الأمر الذي

يؤكد على أن رأيه لم يكن من ورائه هدف واضح؛ سوى مخالفة المشهور، وتجاوز ما سماه" معارف متلقاة"، وما عده عائقا منهجيا، حال دون النظر من جديد في هذا القول، الأمر نفسه يصدق على مناقشته للأحرف السبعة والقراءات القرآنية، وقضية تحريف القرآن، وأول وآخر ما نزل، والمكي والمدني...، كلها قضايا لم يأت فيها بجديد، سوى أنه أثار أسئلة عالقة بشأنها، وأحيى نقاشا قد أميت.

-2-قراءة في مصادر الجابري:

لعل أهم الشروط المنهجية التي يتوقف عليها البحث العلمي هي الأمانة العلمية، وهو شرط واسع تنضوي تحته جملة شروط أخرى، من بينها عزوُ الأقوال إلى قائليها، وبيان مصادر النقل، ثم النقل الأمين للأقوال، من غير بتر لها عن سياقها، أو تأويل بعيد لها؛ لكن هذا الأمر قد أخل به المؤلف في غير ما موطن من كتبه.إن عدم التصريح بالمصادر التي اعتمدها الجابري أمر غالب في كتبه، لكن أتساءل عن علة هذا الأمر، وعن الداعي إليه؟ أهو أمر مقصود فيلام عليه؟ أم غير مقصود فيلتمس له العذر؟.

لقد أرهقني الرجل من أمري عسري، فلم أستطع الرجوع إلى مصادر كثير من القضايا التي أوردها، ولا التأكد منها، فلعلها لم تكن كما أوردها المؤلف؛ أو غير صحيحة النسبة إلى من نسبت إليهم؛ والدافع لي للشك في أمره، وإثارة هذه القضية، أنه قد نسب قولا إلى ابن عاشور، لم يقل به في قضية كون معجزة انشقاق القمر لم تقع، وإنما الذي وقع هو مرور جسم سماوي، فأحدث كسوفا في القمر، وقد أثار هذا الأمر استغرابي، كيف يمكن ابن عاشور أن يقول بهذا الأمر، فدفعني الفضول العلمي إلى التحقق من هذه القضية؛ ولما راجعت تفسيره وجدت أن الأمر ليس كذلك .ومن أهم المصادر الاستشراقية التي اعتمدها الجابري كثيرا دون الإحالة عليها، كتاب " **تاريخ القرآن** " للمستشرق الألماني **نولدكه**، وقد أشرت إلى بعض مواضع النقل في هذا البحث.

التأثر المعرفي بالدراسات الاستشراقية عند الجابري.

بعد أن عرضت باختصار للمناهج التي وظفها الجابري في الدراسات القرآنية، سأعرض لكيفية تطبيقه لها معرفيا من خلال القضايا الآتية: قصص الأنبياء بين القرآن والكتب السابقة، ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وترتيب القرآن على حسب النزول، والموقف من تفاسير العلماء.

-1- قصص الأنبياء بين القرآن والكتب السابقة:

من القضايا التي أولاها الجابري عناية كبيرة في الشرح والتفصيل قضية المطابقة بين القصص القرآني، وقصص التوراة والإنجيل؛ فقد قصر جانب الأصالة والإبداع في قصص القرآن في طريقة عرضه لها، فقال: "والحق أن الأصالة والإبداع في القرآن -وفي القص خاصة- هما في طريقته الخاصة في عرض القصص، وكل من يريد أن يلمس هذا الجانب(الأصالة

والإبداع) فما عليه إلا أن يضع التوراة أمامه، ويحاول أن يعبر عن قصصها بصورة تشبه الطريقة التي عبر بها القرآن"[27]، مضيفا أن علاقة قصص القرآن بقصص التوراة هي **علاقة تصديق، وحكاية، ومطابقة إلى حد كبير**، يقول: "إن علاقة القرآن بالتوراة والإنجيل علاقة تصديق بصورة عامة؛ بل يمكن القول إنها في مجال القصص **علاقة حكاية**؛ بمعنى أن القرآن يحكي ما ورد في التوراة من أخبار بني إسرائيل"[28]. ويقول في موضع آخر: " والواقع أن جل "الحوادث التاريخية" التي يحكيها قصص القرآن عن أنبياء بني إسرائيل، يتطابق إلى حد كبير مع ما جاء في التوراة والإنجيل، والقرآن جاء مصدقا لما بين يديه منهما"[29].

في هذا الكلام تقريرات، وأحكام عامة، لا دليل عليها، بل يحتاج تقريرها إلى استقراء تام للموضوع، فيكفي عقد مقارنة بين قصة لوط وابراهيم وسليمان وداود عليهم السلام، ليتضح البون الشاسع بين قصص القرآن والتوراة، ويتقرر عدم صدق هذه الدعوى.فقد جاء في سفر التكوين عن قصة ابراهيم أنه "تواطأ مع سارة على الكذب والدياثة...، وأنه أسلم زوجته الجميلة، لمن يعاشرها في الحرام طمعا في بقائه حيا"[30]، وعن لوط " أنه سكر وزنى بابنتيه"[31]، وعن داود أنه "فاسق متلصص على عورات الناس، الزاني، القاتل، المغتصب للنساء والزوجات"[32].فبعد عرض هذه النماذج عن قصص هؤلاء الأنبياء في التوراة، كيف يصح منه قوله: " إن علاقة القرآن بالتوراة والإنجيل علاقة تصديق بصورة عامة؛ بل يمكن القول إنها في مجال القصص علاقة حكاية؛ بمعنى أن القرآن يحكي ما ورد في التوراة من أخبار بني إسرائيل"!.إن هذا الصنيع منه لا مبرر له؛ فلعله من السقطات والهفوات التي وقع فيها، بقصد أو بغير قصد، فالرجل لم يكلف نفسه عناء عقد ولو مقارنات بسيطة وسطحية بين قصص القرآن وقصص التوراة، ولو فعل لما خلص إلى هذا الحكم.

وقد أغفل الرجل أن القرآن لم يأت مصدقا للكتب السابقة فقط، بل جاء مهيمنا عليها كذلك، ومصححا لما اعتراها من تحريفات، ومضيفا عليها...، وهنا تتجلى هيمنته عليها، ولئن كان قد أشار إلى جانب من جوانب الهيمنة في قوله: "صحيح أن القرآن يقرر أن التوراة والإنجيل قد داخلهما التحريف، خصوصا على مستوى عقيدة التوحيد والتنزيه والبشارة " بالنبي الأمي"، أما ما عدا ذلك، فالقرآن مصدق لما بين يديه منهما"[33]؛ فإنه قد حصرها في مستوى العقيدة والبشارة، رافضا بذلك أن تكون الهيمنة بمعنى التصحيح، قد شملت القصص، وغيرها من الأخبار، ليؤكد بذلك دعوى تطابق القصص القرآني مع قصص الكتب السابقة.

من خلال موقفه من قصص القرآن الكريم يظهر لنا بوضوح مدى تأثره المعرفي بالدراسات الاستشراقية، وقد أوردت سابقا أثناء التعريف بالمنهج الردي موقف المستشرقين الذين نفوا أية أصالة عن القرآن الكريم، زاعمين أن كل ما جاء إنما هو منحول عما سبقه من الكتب، وقد نقل هذا القول عن **نولدكه** الذي ادعى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتمد على

اليهودية والنصرانية إلى درجة أنه نادرا ما توجد فكرة في القرآن إلا وقد أخذت عنهما[34]، "أكثر قصص الأنبياء في القرآن، لا بل كثير من التعاليم والفروض هي ذات أصل يهودي"[35]، والإسلام ليس إلا الصيغة التي دخلت بها المسيحة العرب[36].

-2- معجزات النبي صلى الله عليه وسلم:

ذهب الجابري إلى أن برهان نبوة الرسول هو القرآن، وليس المعجزات الحسية، وخرق العادة ونحوها؛ إذ إن أسلوب القرآن في الإقناع عنده يختلف اختلافا بينا عن أسلوب التوراة والإنجيل، فالقرآن قد بنى استدلالاته وفق مقتضيات العقل، أما أسلوب التوراة والإنجيل فهو الاحتكام إلى أمور خارج طور العقل، من مثل قلب العصا حية، وفلق البحر، وإحياء الموتى، التي هي قفز على ما جرت به العادة من سنن لا تتخلف، وتحت عنوان "**من رفع الأسباب فقد رفع العقل**"[37] يؤكد الجابري أن إنكار مبدأ السببية، يلغي إمكانية معرفة حقيقة أي شيء؛ إذ إننا لا نعرف حقيقة الأشياء إلا بمعرفة أسبابها، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل. وكنتيجة مباشرة للقاعدة أعلاه، ذهب الجابري إلى أنه لا يمكن إطلاقا التضحية بالسببية، وترك المجال للمعجزة. وقد اتخذ الجابري من القرآن مصدرا؛ لإثبات موقفه من أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم تكن له من معجزة، سوى القرآن نفسه، مستدلا بثلاث آيات، الأولى: قول الله تعالى: { قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا}[38]، ووجه الدليل عنده في الآية؛ هو أن البشر لا يمكنهم الإتيان بالأمور الخارقة، من ارتقاء في السماء ونحوه، والنبي بشر، لذلك فهو لا يستطيع أن يفعل مثل هذه الأمور، والثانية قوله تعالى: {وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون}[39]، ووجه الاستدلال بهذه الآية هو أن المانع من إرسال المعجزات المؤيدة لمحمد صلى الله عليه وسلم، هو تكذيب الأولين بها. والثالثة قوله تعالى: { وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يومنون}[40]، ووجه استدلاله بها هو أنه " عندما أصر المشركون على النبي أن يأتيهم بآيات معجزات؛ كما جاء بها الأنبياء السابقون، رد القرآن عليهم بهذه الآية...، وإذا فالقرآن لا يحتاج إلى معجزة من خارجه تؤيد صدقه وكونه منزلا من عند الله بل هو نفسه يحمل معه برهان إعجازه"[41].

وأوجه الاستدلال بهذه الآيات غير مسلم به للمؤلف، فليس المعنى فيها كما فهم؛ فتفسيره لقوله تعالى:{قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا}، بكون الإنسان لا يستطيع الصعود إلى السماء غير دقيق، فهو قد تجاهل بقية الأسئلة التي سألتها قريش النبي صلى الله عليه وسلم، وهي أن يكون له بيت من زخرف، أو حديقة من نخيل وعنب، فهذه الآية لا تعني بحال، أن الإنسان ليس في مقدوره فعل الأشياء التي طلبوها، ولكن المعنى هو أن الرسول بشر وعبد مأمور، وليس له أن يتحكم على الله في إنزال هذه الآيات، أو تلك. فالله هو الذي ينزل الآيات باختياره، فلا يسأل عما يفعل؛ وبهذا يبدو تفسير الجابري للآية بعيدا عن المراد منها.

أما قوله تعالى: { وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون}؛ فقد ذهب الجابري إلى أن المانع من إرسال المعجزات المؤيدة لمحمد صلى الله عليه وسلم، أن الأولين قد كذبوا بمثل هذه المعجزات؛ أي أن الله لن يرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أي معجزات إطلاقا؛ لهذا السبب، وهذا غير صحيح؛ إذ إن الله تعالى قد أجرى المعجزات على يدي النبي صلى الله عليه وسلم كما هو ثابت، ومعنى الآية واضح، إذا تم فهمه استنادا إلى السياق وسبب النزول، ويبدو من السياق أن إنزال المعجزات التي طلبها الكفار، هي إنذار بالدمار إذا لم يؤمنوا.

أما قوله سبحانه وتعالى: { وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يومنون}؛ فليس المعنى فيه كما فهم، من أنه ليس للنبي صلى الله عليه وسلم من معجزة أخرى سوى القرآن، بل المعنى، كفى بالقرآن دليلا على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي لولم يكن له إلا القرآن وحده لكفاه، بالرغم من أن له معجزات أخرى غيره، ولو تأملوا هذا القرآن لكفاهم عن طلب أي آية أو علامة أخرى؛ إذ إنه ظاهر التفرد، بين التميز، دال على أنه من عند الله.

إن إصرار الجابري على أن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن وحده، مؤكدا عدم حاجته إلى أمور أخرى من خارجه ليس عبثا؛ بل الغاية منه هي التمهيد لمناقشة المعجزات التي وقعت للنبي صلى الله عليه وسلم، نحو معجزة انشقاق القمر والإسراء والمعراج؛ إما بتأويلها أو نفيها.وقد سلك الجابري في مناقشة المعجزات النبوية، ثلاثة مسالك هي الانتقاء، والتأويل، والتشكيك.

1- **مسلك الانتقاء:** والمقصود به؛ أن الجابري قد اقتصر على مناقشة المعجزات التي يمكن تأويلها في القرآن الكريم، بنوع من التأويل؛ كانشقاق القمر، والإسراء والمعراج، استنادا إلى أقوال في التفاسير ليست بذاك، وضرب صفحا عن تلك المعجزات التي ليس إلى تأويلها سبيل، كعصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الناس؛ وإنجاء الله ابراهيم من النار، وانقلاب عصا موسى حية[42]، وانفلاق البحر لموسى[43]، لذلك لم يشر إليها من قريب ولا بعيد!!.

2- **مسلك التأويل:** بعد أن أدى المسلك الأول بالجابري إلى الإعراض عن مناقشة بعض المعجزات الواردة في القرآن؛ نظرا لوضوحها، واستعصائها على التأويل الذي قد يخرجها عن حقيقتها، سلك إزاء معجزة الإسراء والمعراج، وانشقاق القمر؛ اللتين اقتصر على ذكرهما مسلك التأويل؛ فلم ينفهما نفيا كليا مطلقا، وإنما مال إلى تأويلهما، حتى تخرجا عن حقيقة كونهما معجزتين، وتوافقا ما ذكره من الحفاظ على نظام العالم، وعدم خرق سننه ونواميسه، حتى "لا يرفع العقل برفع الأسباب".

ولأجل ذلك أشاد الجابري بموقف الكندي في ميله إلى التأويل، الذي لا يعني اختراق المجال التداولي الذي نزل فيه القرآن؛ إذ إن الحقيقة الدينية لا تناقض العقل؛ غير أنها في بعض

الأحيان، لا يمكن نيلها من ظاهر النص، بل قد يستلزم الأمر اللجوء إلى التأويل[44]، وهذا بيان آراء الجابري بشأن معجزة انشقاق القمر، والإسراء والمعراج.

1- معجزة انشقاق القمر:

قبل بيان رأيه في هذه المسألة، وتفسيره لهذه الآية: {اقتربت الساعة وانشق القمر}[45]، التي هي محور الجدل بين نفاة هذه المعجزة ومتبثها، أكد الجابري من جديد أن القرآن لا يحتاج إلى معجزة من خارجه تؤيد صدقه؛ " ونحن نؤكد فعلا أن الشيء الوحيد، الذي يفهم من القرآن بأكمله، أنه معجزة خاصة بالنبي محمد عليه السلام، هو القرآن لا غير، فالقرآن يكفي ذاته بذاته في هذا الشأن "[46]. ويضيف الجابري قائلا: "وواضح! أننا هنا أمام إغلاق نهائي، لمسألة إمكانية تخصيص خاتم النبيين والمرسلين، بمعجزة من جنس ما طالبت به قريش. لقد قررت الآية أن القرآن كاف وحده، كمعجزة للنبي عليه السلام، ثم أنهت الجدل في الموضوع، بأن خاطبت النبي أن:{ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا}.

وبخطى حثيثة يتقدم الجابري صوب غايتها، قائلا :"ولمعترض أن يقول هناك ظواهر من قبيل المعجزات الخارقة للعادة، مروية عن بعض الصحابة، من ذلك، ما قيل في تفسير قوله تعالى{اقتربت الساعة وانشق القمر}، وما روي بشأن "الإسراء والمعراج"، وهذه أمور ناقشها القدماء من العلماء والمفسرين، والآراء فيها مختلفة، وهي كلها **تراث لنا**، ومن حقنا، بل **ومن واجبنا أن نختار منها ما لا يتعارض مع الفهم، الذي ينسجم مع العقل ومعطيات العلم في عصرنا**"[47]. يفهم من قوله: "ولمعترض أن يقول هناك ظواهر، من قبيل المعجزات الخارقة للعادة، مروية عن بعض الصحابة..."، أن نفي هذه المعجزات هو الأصل، وليس العكس، فكأن الجابري يريد بذلك أن يرد على من يثبتها، ولتبرير موقفه، وتأييد رأيه، قدم جملة من الحجج الضمنية والصريحة، كما يلي:

- قوله إن هاتين المعجزتين رويت عن بعض الصحابة، ولفظة "بعض" تدل على العدد من ثلاثة إلى تسعة، وربما استعماله لها مقصود، للدلالة على أن من رواهما من الصحابة قلة، وذلك باستعماله لصيغة التمريض "رُوي"، ووضعه لعبارة "الإسراء والمعراج" بين علامات التحفظ، التي تفيد الشك وعدم اليقين، والأمر بخلاف ذلك، فقد جاء ذكرها في القرآن، وبلغت رواية هذه الحادثة حد التواتر.
- اختلاف الآراء بشأنها، بين منكر ومتبث، لذلك فلا عجب إن أثارها من جديد، فكونها كلها تراثا، يعني خضوعها للمراجعة والنقد، وهذا الأمر عجيب، فلا يميز بين ما يقبل المراجعة، وما لا يقبلها، ولا بين التابث ولا المتغير، فكل شيء عنده سواء!.
- وجوب الاحتكام إلى العقل، ومعطيات العلم العصرية في الاختيار من هذه الآراء، فما كان منهما منسجما معهما قُبل، وما خالفهما رُد[48].

وبعد هذا التمهيد المبرر لموقفه، انتقل إلى إيراد أقوال بعض المفسرين في الآية التي ذُكر فيها انشقاق القمر؛ قائلا: "فمنهم من قال إن القمر انشق فعلا، وشاهده الناس في مكة، وأن ذلك جاء عقب سؤال قريش النبي أن يأتيهم بآية، ومنهم من قال: إن القمر سينشق يوم القيامة، ومنهم من قال: إن معنى انشقاق القمر: اتضاح الأمر وظهوره؛ لأن العرب تضرب بالقمر مثلا في ما وضح، وقيل: إن ذلك كان خسوفا حل بالقمر في زمان النبي صلى الله عليه وسلم"[49].وقد استبعد الجابري كل الأقوال، مرجحا أن يكون الذي حل بالقمر "خسوفا"، وظاهرة طبيعية عادية. وإذا كان انشقاق القمر عند الجابري خسوفا طبيعيا؛ فقد ذهب حسن حنفي إلى أن اقتران بعض المعجزات بدعوات الأنبياء، هو من قبيل الاتفاق وبمحض المصادفات[50].

وقد مال الجابري إلى رأي ضعيف كما سبق؛ إذ ذهب إلى أن معنى "انشقاق القمر"؛ هو خسوفه، وقد استدل بقول أورده الإمام ابن عاشور، وهو مرور جسم سماوي، حجب ضوء الشمس عن وجه القمر، كما استدل بحديث أورده الطبراني عن ابن عباس قال: "كُسف القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: سحر القمر؛ فنزلت اقتربت الساعة وانشق القمر"، والحق أن الجابري لم يكن موفقا، أو بالأحرى أمينا في النقل عن ابن عاشور الذي أخذ عنه فكرة الخسوف، وإنما كان يقول بخلافها؛ إذ أورد الأدلة التي تؤكد أن القمر قد انشق حقيقة؛ بل وحدد تاريخ هذا الانشقاق بأنه كان سنة خمس قبل الهجرة، ثم قال: "إن كثرة رواة هذا الخبر تدل على أنه كان خبرا مستفيضا."[51] ثم ناقش ابن عاشور كل الآراء، وعرض لكون أهل الآفاق قد رأوا هذه الظاهرة أم لا؟ ثم بعد ذلك ذكر مسألة (الخسوف) وقال إننا أوردناها «مسايرين للاحتمالات الناشئة عن روايات الخبر عن الانشقاق إبطالا لجحد الملحدين"[52].

ويتشبث بآخر حجة، قائلا: " أما نحن فنرى أن عدم نزول آيات أخرى تؤكد "انشقاق القمر" دليل على أن ما حدث لم يكن من قبيل "خرق العادة"، فلو كان الأمر استجابة لطلب قريش، كما ذكرت الروايات، لكان في القرآن ما يفيد ذلك...، كل هذا قد رجح لدينا أن ما حدث كان خسوفا، كما وردت بذلك رواية ابن عباس"[53].وهذه الحجة أوهى من أن يرد عليها، فمفهوم مخالفة كلام الجابري، أن كل ما لم ينزل القرآن بشأنه أكثر من مرة، يمكن الشك فيه ورده!.

2- **معجزة الإسراء:**

ذكر الجابري أن الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ إنما كان بروحه دون جسده، وقد كان ذلك "رؤيا" في المنام؛ وهذا ليس خرقا للعادة، وليس فيه رفع لسنن الكون، واستدل على أن الإسراء كان رؤيا منامية بقوله تعالى: {وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس}[54]، و عدم ذكر ذلك في القرآن، ثم بالروايات الأساسية في الموضوع التي يظهر منها أن ذلك كان مناما[55]. وهذا القول ليس بجديد، بل هو رأي ضعيف،

ناقشه العلماء وأبطلوه، وقد عقد القاضي عياض فصلا في كتابه "الشفا"، سماه" إبطال حجج من قال إنها نوم " للرد على من قال بذلك[56].وبخصوص معجزة المعراج، ذهب الجابري إلى أنه كان كالإسراء؛ إذ إن كليهما قد حدثا في رؤية منامية، وليس حال اليقظة؛ لأن الإنسان لا يمكنه الارتقاء إلى السماء، فإذا قلنا إن المعراج كان بالجسم؛ فإن ذلك يعني أن الرسول رأى الله رؤية بصرية، وهذا لا يمكن إلا مع الأجسام، والله منزه عن الجسمية[57].

وأشير هنا إلى أن هذه الاستدلالات والأقوال قد أخذها عن نولدكه.[58]

ليس غرضي نقد آراء الجابري، وتعقبها جملة وتفصيلا، بل المقصود أن أنبه إلى بعض الأخطاء التي وقع فيها الجابري في نهجه لمسلك التأويل في هاتين المعجزتين، وهي باختصار:

- ✓ غلبة الانتقاء على منهجه في التعامل مع الحجج، حيث يورد ما يناسب موقفه، ويتجاهل ما يعارضه، ويقوي الضعيف من الأقوال، ويتشبث بها.
- ✓ الأخذ بتأويلات بعيدة في اللغة، ومخالفة قول المحققين من أهل اللغة (تفسير الرؤيا بالمنامية).

ثالثا: مسلك التشكيك والرد: لما لم يجد الجابري للمعجزات الواردة في القرآن مدفعا، وسلك نحوها مسلك التجاهل والتأويل، فإنه على العكس من ذلك، قد نفى المعجزات التي وردت في السنة نفيا قاطعا، وذكر أن الأحاديث التي وردت فيها إنما هي أخبار آحاد، قد تساهل النقاد فيها، لأنها ليست أحاديث أحكام؛ لأنهم " كانوا يتساهلون في قبول أحاديث الثواب والعقاب، وفضائل الأعمال"[59].صحيح أن الأحاديث التي وردت فيها هذه المعجزات ليست أحاديث أحكام، ولكنها في الوقت نفسه، ليست أحاديث فضائل أعمال وثواب وعقاب خلافا لما ذكر، وإنما تتعلق بإثبات النبوة والدين نفسه.

فواضح مجانبة الجابري للصواب فمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم بلغت حد التواتر؛ فقد نقلها كثير من الصحابة الكرام، وهذا يبين عدم تفريقه بين الحديث المتواتر والآحاد.وهذا القول منه سبق له القول به في كتاب آخر؛ إذ ادعى أن "بعض علماء الإسلام قد أجازوا وضع الحديث في مجال الترغيب و الترهيب، أي في مجال الأخلاق"[60].

-3 ترتيب المصحف أم ترتيب النزول.

ناقش الجابري في الفصل العاشر المعنون بـ" ترتيب المصحف وترتيب النزول" من المدخل، جملة من القضايا المتعلقة بترتيب المصحف، والمعايير التي اعتمدها في ترتيب النزول الذي استعاض به عن ترتيب المصحف؛ مبرزا أهمية هذا الترتيب وفوائده، وهذه القضايا هي مدى استحضار معيار الطول والقصر، في ترتيب سور المصحف؛ فقد استهل الحديث عن هذه القضية بالقول إن: " السؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: كيف تم ترتيب السور في هذا المصحف، وعلى أي أساس؟"[61]، ليؤكد بعد ذلك أن الشيء الذي يمكن تقريره بيقين تام، هو

أن الترتيب الذي عليه قرآن المصحف اليوم، هو الترتيب الذي أقرته اللجنة، التي كلفها عثمان بجمع القرآن[62].

يؤكد الجابري أن أول جمع للمصحف في كتاب واحد كان زمن عثمان رضي الله عنه، أما الجمع الذي وقع في عهد أبي بكر " فقد كان مقتصرا على جمع" الصحف" أي المواد التي كتب عليها مفرقا، كالقماش وورق الحرير، بينما كان جمعه في عهد عثمان، عبارة عن ضم تلك الصحف، وجعلها في مصحف واحد"[63].وقد ترتب عن هذا الحكم لدى المؤلف، أي: جمع القرآن في عهد عثمان، واعتبار ما فعله أبو بكر مجرد جمع لصحف مختلفة من الصحابة، جملة نتائج هي:

- أن ترتيب السور في المصحف ترتيب اجتهادي، ويضيف" وهذا ما يقول به جل من بحثوا في هذا الأمر من القدماء والمحدثين"[64]، وحجته في ذلك أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن لهم ترتيب محدد للسور في مصاحفهم، فصار لكل منهم مصحف بترتيب خاص[65].
- جواز وقوع أخطاء في القرآن حين جمعه، قبل جمع عثمان، أما بعده فلا وجود لأدلة قاطعة، على وجود زيادة أو نقصان في القرآن، فقبل جمع عثمان كان القرآن مفرقا في "صحف" وفي صدور الصحابة، ومن المؤكد أن ما كان يتوفر عليه هذا الصحابي، أو ذاك من القرآن، مكتوبا أو محفوظا، كان يخالف ما كان عند غيره، كما وترتيبا، ومن الجائز أن تحدث أخطاء حين جمعه، زمن عثمان أو قبل ذلك، فالذين تولوا هذه المهمة لم يكونوا معصومين، وقد وقع تدارك بعض النقص كما ذكر في مصادرنا[66].

ومن الأمثلة على الذي ذكرته بخصوص هذه النتيجة، محاولة الجابري أن تأويل بعض الروايات التي ورد فيها ما يفيد أن القرآن قد سقطت منه بعض الآيات أو جزء منه، فمن ذلك قوله، بعد أن أورد بعض الروايات التي تشير إلى سقوط جزء من سورة التوبة والأحزاب: " وكل ما يمكن قوله على- سبيل التخمين لا غير – هو أن يكون الجزء الساقط من سورة براءة هو القسم الأول منها، وربما يتعلق بذكر المعاهدات، التي كانت قد أبرمت مع المشركين...، أما سورة الأحزاب فيبدو أن ما سقط منها مبالغ فيه، وحجتنا على ذلك أن عمر بن الخطاب وغيره قد ذكروا آية واحدة كانت فيها، وسقطت، وهي آية الشيخ والشيخة[67].

عجيب أمر الجابري، فمجرد محاولة تأويل هذه الروايات هو اعتراف بمضمونها، بل سلك مسالك التخمين والتوقع والاحتمال، وهو أمر في غنى عنه، لو استعمل منهج الشك، الذي استعمله في رد كثير من الروايات التي تعارض مقاصده، فلم يكلف نفسه عناء الرجوع إلى أقوال النقاد، في رد هذه الروايات، واعتمدها، وكأنها صحيحة، وبنى باطلا على باطل.

وتعقيبا على كلامه الأول بخصوص جمع أبي بكر، أقول: إن جمع أبي بكر كان في مصحف واحد، من مختلف الصحف، التي كانت عند الصحابة، تحت إشراف زيد بن ثابت، وليس الأمر مجرد جمع لهذه الصحف فقط؛ دون ترتيب لها، وكتابتها في مصحف واحد، كما ذهب إلى

ذلك، فجمع عثمان إنما هو جمع على قراءة واحدة، بعد أن تم الاختلاف في كيفية القراءة، وأدى ذلك إلى الفتنة، ولأن جمع القرآن في مصحف واحد قد وقع زمن أبي بكر، وعليه يكون ترتيب سور القرآن ما أقرته لجنة أبي بكر، وليس عثمان، مما كان معمولا به زمن النبي صلى الله عليه وسلم.فبعد تأكيده أن ترتيب سور القرآن كان اجتهادا من الصحابة، أشار إلى عدم المعرفة بالمعايير التي تم الترتيب على أساسها، سوى بعض المؤشرات التي يمكن استخلاصها من دراسة هذا الترتيب نفسه.

ومن القضايا التي تناولها كذلك، في هذا الفصل، قضية المكي والمدني، وقد أشار فيها إلى الاختلاف الكبير الحاصل بين العلماء في تحديده، مسجلا أن هذا الاختلاف لم يقع في السور المكية وحدها، الأمر الذي يمكن تبريره بوضعية المسلمين في مكة، بل شمل كذلك السور المدنية؛ إذ السبب في ذلك راجع إلى أن التمييز بين المكي والمدني لم يتم الاهتمام به إلا في المائة الثانية للهجرة[68]؛ والذين اهتموا به في ذلك العصر كان مستندهم في الأعم الأغلب، جملة وقائع أو أمارات جزئية متعارضة، لا تسمح باستنتاج يتعدى مجرد الظن والتخمين.[69]

وحول قضية أول ما نزل وآخر ما نزل، أشار المؤلف إلى الاختلاف الواقع بين العلماء فيها، ليخلص إلى التساؤل: إذا كان مثل هذا الاختلاف – الذي اختصرناه – قد حدث في تحديد آخر ما نزل من القرآن (سورة وآية) والنبي حي يرزق، وكتاب الوحي كثيرون، وحفظة القرآن أكثر من أن يحصوا[70]، فكيف بما نزل قبل ذلك؟[71].

هذا الاختلاف سيبرر به المؤلف اجتهاده، في إعادة ترتيب بعض سور القرآن الكريم؛ يقول: " هذا الترتيب المعتمد اليوم هو نتيجة اجتهاد مبني على الظن والترجيح؛ فهو ضروري؛ لكنه غير كاف؛ لذلك قد تدعو الحاجة إلى التصرف فيه"[72].ورغم إشادة المؤلف بهذا المنهج الذي اتبعه، وبيان أهميته الكبرى في "معرفة القرآن" فإنه لم يكن بدعا فيه من الباحثين، فهو معروف في خطوطه العامة، وقد أشار بنفسه إلى أن فكرة تفسير القرآن، وفقا لترتيب النزول، تعود إلى المستشرق الفرنسي **ريجس بلاشير** الذي قام بترجمة "**معاني القرآن**" إلى الفرنسية (1947-1950)، على أساس ترتيب النزول، الذي وضعه **ثيودور نولدكه**، وإلى **محمد عزة دروزة** في "**التفسير الحديث**"، الذي قال عنه، إنه لم يأت بجديد؛ إذلم يوظف ترتيب النزول في بناء أي تصور عن مسار نزول القرآن الكريم[73]، إضافة إلى تفسير **عبد الرحمن حبنكة الميداني** المسمى "**معارج التفكر ودقائق التدبر**".

فالجابري قد أسس فهمه للقرآن على أقسام المدني والمكي، وتقسيم مكي القرآن تقسيما سداسيا، مستوحى بشكل واضح من تقسيم **نولدكه** الذي أخذه عنه **بلاشير** على الرغم من انتقاده له بالقول: إن "التحقيب الذي اعتمده **بلاشير** مبني على التمييز بين خصائص القرآن المكي ومميزات القرآن المدني، وهي أمور معروفة، وقد فصل القول فيها كثير من المؤلفين المسلمين قديما وحديثا[74]. لكن المؤلف لم يغفل عن كثير من الإشكالات المتعلقة بمسألة ترتيب

النزول، فنبه إلى بعضها؛ محاولا الإجابة عنها، فقد أشار إلى أن مسألة الترتيب التي "فصل القول فيها كثير من المؤلفين قديما وحديثا "لا يحسمها النص التاريخي الصحيح؛ ذلك أن الوثائق التي تتعلق بالترتيب التاريخي للقرآن مضطربة، وليست على درجة من التوثيق يمكن الاطمئنان إليها بشكل تام، فضلا عن أن كثيرا منها يطرح مشكلة التوافق في السياق، سياق السيرة النبوية الشريفة،[75] إلا أن الجابري يعود ليستند إليها على أساس أن الاستناد إليها لمعرفة ترتيب القرآن أمر لا مفر منه، مبررا ذلك بالقول: إنه "ترتيب ضروري، ولكنه لا يكفي[76]."

-4- الموقف من التراث التفسيري:

إن إشادة الجابري بمنهج ترتيب النزول، قد رافقه انتقاد شديد للتفاسير التي اعتمدت ترتيب المصحف، فبعد تأكيده على أن فهم القرآن مهمة مطروحة، في كل وقت ومطلوبة في كل زمان، دعا إلى ضرورة اكتساب فهم متجدد للقرآن، بتجدد الأحوال في كل عصر، من خلال تجريد هذا النص- أي القرآن – مما سماه أنواع الفهوم، والتفسيرات، والتأويلات، باختلاف أنواعها واتجاهاتها، وعزل المضامين الايديولوجية لتلك الأنواع من الفهم.

وقد استثنى من كل التراث التفسيري تفسير الطبري، و الزمخشري، مؤكدا أن باقي التفاسير في الغالب، تتحرك بوضوح، وسبق نية، في إطار مذهب من المذاهب التي عرفها تاريخ الفكر الإسلامي، "ومع أننا لم نقصها من اهتمامنا؛ فإننا قد تجنبنا صحبتها لما يغمرها من "مياه" ايديولوجية"[77].ليؤكد في الأخير أن النتيجة العامة والعملية التي خرج بها من مصاحبة التفاسير الموجودة، هي أن المكتبة العربية الإسلامية، تفتقر إلى تفسير يستفيد في عملية "الفهم" من جميع التفاسير السابقة؛ ولكنه يعتمد ترتيب النزول"[78].

وقد بسط دعواه هذه في نص طويل نورده كما هو، ثم بعقب عليه:

يقول:" أما المفسرون -كلهم تقريبا - حتى الكبار منهم، فقد انساقوا في تفاسيرهم مع ترتيب المصحف، فيبدؤون من البقرة بعد الفاتحة ليفسروا ما تلاها في المصحف، هذا بينما واقع الحال أن البقرة هي تتويج للقرآن، ولهذا قال "بلاشير" الذي قام بترجمة القرآن إلى الفرنسية "نحن نقرأ القرآن مقلوبا"، نبدأ من آخر ما نزل لنصل إلى "قل أعوذ برب الناس"، بينما سورة "الناس" هذه هي من السور الأوائل في ترتيب النزول، المفسرون القدماء، ومنذ عهد الصحابة، كانوا يبدؤون القرآن من البقرة، وفيها آيات هي من آخر ما نزل، وهذا مبرر لأن الدولة كانت تحتاج إلى قرآن التشريع، أكثر من حاجتها إلى قرآن الدعوة الذي طبع المرحلة المكية، والذي كان موجها كله تقريبا إلى قريش، فهذا التساوق بين نزول القرآن منجما وتطور الدعوة المحمدية، ووقائع السيرة النبوية، غفل عنه كبار المفسرين أنفسهم، حين يفسرون آية من الأعراف أو البقرة أو غيرهما، وكأنها آية منفصلة مستقلة، وإذا تكلموا عن أسباب نزولها، تكلموا عن واقعة معينة مقطوعة عن سياقها.[79]

إن ما ادعاه الجابري من أن المفسرين غفلوا عن العلاقة بين نزول القرآن الكريم ومسار الدعوة النبوية، حين يفسرون آية من الأعراف أو البقرة أو غيرهما، وكأنها آية منفصلة مستقلة، وإذا تكلموا عن أسباب نزولها، تكلموا عن واقعة معينة مقطوعة عن سياقها، لا مبرر له سوى الرغبة في نسبة هذا السبق إلى نفسه، من غير دليل ولا حجة، فالمتصفح لكتب التفسير يجد هم لا يمرون على آية لها سبب نزول إلا ونبهوا عليه، وبينوا علاقتها بمراحل الدعوة النبوية، ومتى نزلت ولأي سبب نزلت، وما اهتمامهم ببيان كون السور مكية أو مدنية، إلا دليل على إدراكهم العميق لاختلاف طبيعة القرآن المكي عن المدني في مواضيعه وأسلوبه، فهذا الأمر وإن لم يكن واضحا ومنصوصا عليه عندهم، فهو مبثوث في ثنايا كتبهم، ولعل الجابري لم يتنبه له، كيف لا، وقد أخذ على نفسه أن يتجنب صحبتها لما يغمرها من "مياه" ايديولوجية، وقد فاته أن كثيرا من العلماء قد حرصوا على بيان علاقة الآيات بعضها ببعض، وكذا السور في ما بينها، و قد تناولوا هذه الأمور تحت مسمى "المناسبة" في القرآن الكريم، وأفردوا لها مؤلفات خاصة.

وردا على دعوى أن المسلمين يقرؤون القرآن مقلوبا كما نقلها عن المستشرق الفرنسي **ريجس بلاشير**، أقول إن مدعي هذه الدعوى والداعين إلى قراءة القرآن وتفسيره حسب ترتيب النزول لم يدركوا الحكمة من ترتيب القرآن على غير ترتيب النزول، وقد واجههم عدة اعتراضات لم يجدوا لها مدفعا، أقواها أن هذا الترتيب الذين يدعونه غير يقيني باعترافهم هم، وثانيها أن ترتيب السور مما وقع عليه إجماع الصحابة رضي الله عنهم، حتى وإن وقع الاختلاف هل هو باجتهادهم، أو بتوقيف من النبي صلى الله عليه، فهم أعلم الناس بالقرآن، و لا يجوز أن يفعلوا شيئا لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم، أو ليس لهم عليه دليل ما، إضافة إلى ان النبي صلى الله عليه وسلم كان جبريل عليه السلام يعارضه القرآن الكريم في كل رمضان على الترتيب، كما كان يصلي بالقرآن في الصلاة مرتبا على ترتيب السور.

وفي ختام تفسيره المسمى: "فهم القرآن الحكيم، التفسير الواضح حسب ترتيب النزول" أعلن الجابري عن رضاه قائلا:" يمكن القول دون فخر زائد، ولا تواضع زائف، إنه لأول مرة أصبح ممكنا عرض القرآن، ومحاولة فهمه بكلام متصل مسترسل يشد بعضه بعضا، كلام يلخص مسار التنزيل، ومسيرة الدعوة في تسلسل، يرضي النزوع المنطقي في العقل البشري".

ليس غريبا أن يدعي الجابري هذا الفضل لنفسه، وقد رمى بتراث العلماء في التفسير وراء ظهره، ووصفه بما وصفه، وكأن كل ما كتب لم يرض النزوع المنطقي في الانسان، حتى لَبَّاه هو، فالمطلع على تفسيره الذي قال عنه ما قال ليجده أقرب ما يكون إلى معجم لشرح كلمات القرآن الكريم من عنديته، وبين الفينة والأخرى يضيف تعليقا، أو يشرح كلمة لا تحتاج إلى شرح، وكثيرا ما غض الطرف عن كثير من الأمور التي تحتاج لشرح وتفصيل.

وفي ختام هذا البحث أسجل الخلاصات الآتية:

- أن أغلب المناهج الاستشراقية في دراسة القرآن وعلومه ليست علمية، لافتقارها في الغالب إلى الموضوعية والحياد ؛ لذلك لا يمكن الاعتماد على دراساتهم.
- أن أسباب غياب الموضوعية عند كثير منهم منها ما هو ذاتي، تمثل في الحقد الدفين على الإسلام، وما هو موضوعي، تجلى في عدم امتلاكهم بعضهم لأدوات البحث العلمي الرصين، وعلى رأسها المعرفة الجيدة باللغة العربية، وتاريخ التراث الإسلامي.
- هذه المناهج الاستشراقية لقيت قبولا كبيرا عند كثير من المفكرين العرب الذين انبهروا بها، من غير تمحيص ولا نقد دقيق لخلفياتها المنهجية والمعرفية، فأعملوها في دراسة التراث فأتوا بالعجيب والغريب في النتائج والأحكام.
- ما توصل إليه الجابري من نتائج من خلال القضايا المنهجية والمعرفية التي درستها في هذا البحث ليس فيها جديد يذكر، وإنما هي آراء مستعادة نقلها عن المستشرقين خصوصا نولدكه، بل هي في غالبها تقليد.
- اعتزاز الجابري بنفسه واعتدادها بها، وتقليله من شأن ما كتبه الأولون في مجال الدراسات القرآنية، شأنه شأن أغلب مدعي التجديد والحداثة- فلا عبرة عندهم بهذا التراث الضخم، وما هو إلا مجرد عوائق معرفية أمام التقدم- يتنافى مع التواضع العلمي الذي ينبغي أن يتحلى به الباحث، واعتماد مبدأ التراكم المعرفي في هذا المجال، وليس السعي إلى إحداث "قواطع معرفية".
- هذه المناهج الغربية التي وظفها الجابري في مجال الدراسات القرآنية ما هي إلا مجرد آليات استهلاكية، كما وصفها طه عبد الرحمان[80]، غايتها الاستهلاك المنهجي والمعرفي.
- أنه لا يجب النظر إلى المستشرقين كلهم بمنظار واحد، بل منهم المنصفون والمعتدلون، ممن خدموا تراثنا خدمة جليلة، لذا يجب على شعب الدراسات الإسلامية الاهتمام بها قصد الاستفادة منها منهجيا ومعرفيا.

الهوامش:

---

[1] النص القرآني في الخطاب الاستشراقي الفرنسي: المرجعية والتشكيل، عبد الوهاب بن دحان، رسالة دكتوراه، كلية اللغات، جامعة أبي بكر بلقايد-
تلمسان الجزائر، السنة الجامعية 2010-2011، ص: ب.

[2] الرد على شبهات المستشرقين حول مصدرية القرآن، أيوب ابراهيم، مجلة ديالي، العدد 53، سنة 2011، ص:13.

[3] المصدر نفسه، ص: 24.

[4] مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، 1955، ص:4

[5] له كتاب (المفردات الأجنبية في القرآن) نشره عام 1938

[6] تنظر المقدمة التي قدم بها لكتاب المصاحف لأبي داود السجستاني.

[7] مناهج المستشرقين، ص: 16.

8 للتأكد من صدق هذه القضية يكفي الرجوع إلى فهارس المراجع التي اعتمدوها، ينظر مثلا فهرس "تاريخ القرآن" لنولدكه، و"مذاهب التفسير الإسلامي" لجولد تسيهر و"المدخل" للجابري

[9] سنحيل على هذا الكتاب باسم المدخل في بقية البحث.

[10] المدخل، ص: 11.

[11] المدخل، ص:12.

[12] نفسه.

[13] المدخل، ص: 13.

[14] المدخل، ص: 14

[15] نفسه.

[16] المدخل، ص: 16.

[17] يدل على ذلك وضعه لعلامة التعجب، ص:14.

[18] المدخل، ص:8.

19 أسبوعية الأيام المغربية العدد المؤرخ بـ 17/11 نوفمبر 2006

[20] المدخل، ص:154.

[21] ليس المقصود اختلاف التضاد، وإنما اختلاف الرواية عن الأخرى بزيادة بعض التفاصيل أو نقصانها، فهي بمنزلة حادثة السير التي يروي الشهود بعض تفاصيلها، مع اختلاف بينهم، فهذا الاختلاف دليل على وقوع الحادثة، وإنما المطلوب العمل على ترتيبها حتى تتضح الصورة، المدخل، ص:18.

[22] أسبوعية الأيام، مصدر سابق.

[23] انظر الصفحة: 349.

[24] سلسلة مواقف، العدد69، ص:10.

[25] بنية العقل العربي، ص: 125.

[26] المدخل، ص: 69 - 89.

[27] المدخل، ص:392.

[28] نفسه.

[29] المدخل، ص:239.

[30] سفر التكوين: 10-20.

[31] نفسه:30-38.

[32] سفر صموئيل الثاني: 11: 1-26.

[33] المدخل، ص:24.

[34] تاريخ القرآن، ترجمة جورج تامر، ترص: 343،

35 تاريخ القرآن، ص:7

36 نفسه، ص: 8.

37 المدخل، ص:125.

38سورة الإسراء، الآية:93.

39 سورة الإسراء، الآية: 59.

40 سورة العنكبوت، الآية: 51.

[41] المدخل، ص:164.

42 مر على الآيات التي تحدثت عن هذه المعجزة مرور الكرام من غير تفسير ولا تعقيب، ينظر: فهم القرآن الحكيم، ص: 282.

43 الأمر نفسه فعله مع معجزة انفلاق البحر، المرجع نفسه، ص: 285.

[44] المدخل، ص:110.

[45] سورة القمر، الآية:1.

[46] المدخل، ص: 110.

[47] نفسه.

2 نفسه.

[49] المدخل، ص:167.

[50] من الثورة إلى العقيدة، ص: 75.

[51] التحرير والتنوير، ج 27، ص: 167.

[52] التحرير والتنوير، ج 27، ص: 167-170

[53] المدخل، ص:168.

[54] سورة الإسراء، الآية: 60.

[55] المدخل، ص:168-169.

[56] الشفا، القاضي عياض ،ج 1، ص: 149-152.

[57] المدخل، ص:169.

[58] تاريخ القرآن، ص:25.

[59] المدخل، ص:169.

[60] العقل الأخلاقي العربي، ص: 535.

[61] المدخل، ص:215.

[62] نفسه.

[63] المدخل، ص:199.

[64] المدخل، ص:196.

[65] نفسه.

[66] المدخل، ص:210.

[67] المدخل، ص:209.

[68] المدخل، ص: 217.

[69] المدخل، ص:218.

[70] كلام ناقض به المؤلف ما سبق أن قرره من أن الصحابة الذين يحفظون القرآن كانوا قلة، وحصرهم في أربعة، هم الذين كلفوا بجمع القرآن قبل وفاة النبي، قائلا والمقصود بكون هؤلاء وحدهم"جمعوا" القرآن، أنهم وحدهم كانوا يحفظونه كاملا عن ظهر قلب، ص197.

[71] نفسه.

[72] المدخل، ص:222.

[73] المدخل، ص:221.

[74] المدخل، ص:221.

[75] المدخل، ص:230.

[76] المدخل، ص:222.

[77] فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الأول، ص:6-10.

[78] نفسه.

[79] أسبوعية الأيام، مصدر سابق.

[80] ينظر كتابه القيم " تجديد المنهج في تقويم التراث"، ص:24.

مصادر البحث:

القرآن الكريم برواية حفص.

- بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، 2009.

-تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ترجمة جورج تامر، ط1، بيروت 2004، مؤسسة كونراد أدنوار.

-تجديد المنهج في تقويم التراث، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، ط 2.

-التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ط 1984.

-دفاع عن القرآن ضد منتقديه، عبد الرحمان بدوي، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للعلوم والنشر،(د ت).

-الرد على شبهات المستشرقين حول مصدرية القرآن، أيوب ابراهيم، مجلة ديالي، العدد 53، سنة 2011، نسخة الكترونية.

-سفر التكوين- سفر صموئيل الثاني.

-سلسلة مواقف، محمد عابد الجابري، العدد69.

-الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، مؤسسة الكتب الثقافية، ط 3.

-العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001 .

-فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، القسم الأول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2008.

-مدخل إلى القرآن الكريم: في التعريف بالقرآن، محمد عابد الجابري، الجزء الأول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء 2006.

-مذاهب التفسير الإسلامي، جولد تسهر، ترجمة عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي، مصر، 1955.

-مقدمة كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني، آرثر جيفري.

-من الثورة إلى العقيدة، الركز الثقافي العربي، طبعة 1988.

-مناهج المستشرقين، حسن عزوزي، نسخة الكترونية.

-موسوعة المستشرقين، عبد الرحمان بدوي، ط3 دار العلم للملايين، بيروت 1993.

-النص القرآني في الخطاب الاستشراقي الفرنسي: المرجعية والتشكيل، عبد الوهاب بن دحان، - رسالة دكتوراه، كلية اللغات، جامعة أبي بكر بلقايد-تلمسان الجزائر، السنة الجامعية 2010-2011.

-الأسبوعية المغربية "الأيام"، في عددها المؤرخ بـ 17/11 نوفمبر 2006.